فلسطين حية

أصغر طبيبة في العالم: فلسطينية

هي الآن أصغر طبيبة في العالم، فقد تخرّجت في كلية الطب في العشرين من عمرها بسبب تفوقها الاستثنائي، حتى قيل عنها منذ ست سنوات، في أكثر من وسيلة إعلامية، إنها «أصغر طالبة طب في العالم»، حسب «غينيس».

معمر عطوي

إقبال الأسعد (20 عاماً) ابنة قرية مغار الخيط في محافظة صفد الفلسطينية القريبة جداً من الجنوب اللبناني، التي لجأت عائلتها في زمن النكبة الى منطقة البقاع في لبنان، حيث عمل جدها وأولاده في الزراعة، وتمكنوا من بناء منزل احتضن تقريباً جميع أفراد العائلة الكبيرة المؤلفة من نحو 15 فرداً، تستعد اليوم للسفر الى الولايات المتحدة لمتابعة دراسة الطب ـ تخصص أطفال.

عن سبب انتهائها السريع من دراسة الطب العام وهي في عمر قد تكون فيه بنات جيلها في بداية الدراسة الجامعية، توضح إقبال لـ«الأخبار» أن «سبب تجاوزي صفوف الدراسة يعود إلى والدي بعد أن لاحظ عليّ التفوق في عمر مبكر، أي حين كنت لا أزال في صف الروضة. وحين دخلت المدرسة الابتدائية بدأ والدي، بالاتفاق مع مدير مدرستي في برالياس (البقاع) الأستاذ محمد عمر عراجي، بمساعدتي على تجاوز كل صفين بصف واحد. لذلك درست الصف الثاني، والرابع، والسادس، والتاسع، والعاشر والبكالوريا. وأنهيت مدرستي بعمر 12 سنة. وكان لا بد من الحصول على استثناء للتمكن من المشاركة في امتحانات البكالوريا الرسمية، وتم ذلك بمساعدة من الوزير السابق عبد الرحيم مراد، الذي آمن بموهبتي ودعمني».

وفي ما يخص رحلتها نحو قطر، تقول إقبال: «ولما أنهيت الثانوية، دعاني وزير التربية آنذاك خالد قباني، وكرمني ووعدني بتأمين منحة دراسية. واستطاع الحصول على منحة من الشيخة موزة، ودرست في قطر الطب العام»، حيث تتخرج الشهر المقبل.

وعن دور الأهل وموقفهم من سفر فتاة صغيرة للدراسة خارج لبنان، أوضحت الأسعد أن أهلها وقفوا الى جانبها وتمكنوا من التناوب على مرافقتها ومساعدتها في دولة قطر، حتى أنهت الطب العام، مضيفة «أهلي حتى الآن لا يزالون يدعمونني، فالفضل الأول لربنا والثاني للوالد (محمود الأسعد). ولا أظن أن الكثيرين من الأهل يعطون اهتماماً لأولادهم مثل أهلي. هناك أطفال أذكياء كُثر، لكنهم يفتقدون أهلاً يدعمونهم ويكتشفون فيهم المواهب والذكاء».

وتتحدث إقبال عن اختيارها لاختصاص الطب قائلة: «منذ كنت صغيرة وأنا أطمح إلى أن أصبح دكتورة، وهذا الشيء كان خياري أنا. لقد قررت أن أصبح طبيبة أطفال. لذلك، سأسافر في شهر حزيران الى الولايات المتحدة لأكمل دراسة الاختصاص هناك في كليفلاند كلينيك في ولاية أوهايو».

> لاحظ علي والدي التفوق في عمر مبكر

عن مصاريف الدراسة والإقامة في أميركا تقول الأسعد إن المستشفى الجامعي الذي ستعمل فيه هناك سيؤمن لها مدخولاً يغطي تكاليف إقامتها ودراستها، «أما في قطر فقد كانت المنحة كاملة شملت كل المصاريف، ولم يفرضوا عليّ أي شروط لقاء ذلك». تضيف إقبال باللهجة الفلسطينية «بالنسبة لشعوري كوني أصغر طبيبة، أكيد شي حلو ومثير للاستغراب، بس هالشي عن جد بيعنيلي وبيفرحني إنو أنا أقدر استغل هالوضع لصالح الناس المحتاجة. وهدفي الأساسي إنو ساعد كل إنسان بحاجة لمساعدة، وكرمال هيك أنا اخترت مهنة الطب».

تصر أصغر طالبة طب في العالم على خدمة قضيتها المركزية فلسطين، وأهلها، قائلة «أطمح في المستقبل إلى أن أعود طبيبة متخصصة وأخدم شعبي الفلسطيني وكل إنسان محتاج لمساعدتي، كما أطمح إلى أن أؤسس عيادتي لأهالي المخيمات».

وإذ تصرّ على توجيه شكرها الى كل من آزرها ودعمها، تطمح الأسعد إلى أن تلعب الدور نفسه في المستقبل لتساعد «كل طالب طموح وطالب علم لديه إيمان بقضيتنا. أنا واثقة بأن هناك كثيرين من أبناء فلسطين أذكياء لم تتوافر لهم الفرص ليتابعوا دراستهم». وهي لا شك على حق.

بعدسة أهلها

إنتظرها بصبر. عجنت وأوقدت النار، وهو ينظر. ثم رققت العجين و«هلّته» أرغفة، سرعان ما ألصقتها بصاجها الساخن، وكان لا يزال ينظر. إنتظرها بصبر حتى فرغت لتعطيه رغيفا ساخنا مدهونا بالسمن والسكر، سيبقى طعمه «تحت أضراسه» الى أن يشيب. (تصوير شعيب ابو جهل)

أن يتشارك ذاكرته الشخصية مع الذاكرات الشخصية لأترابه وأهل مخيمه. فهذا التشارك سيراكم ذاكرة بصرية تصبح بمرور الوقت هوية لأهل المخيم، تجمعهم وتربطهم، ولو كان في الوجود المؤقت. تتحرك المشاعر عند رؤية صور الأبيض والأسود للمعسكر القديم الذي كان مكاناً للتدريب العسكري أيام الثورة، وأصبح في ما بعد ملعباً لكرة القدم، ثم تحول أخيراً إلى شقق سكنية محت معالمه. إلا أن الصور القديمة ما تزال تشهد أنه هنا كان المعسكر. حينما تتنقل بين الألبومات، يلفتك أن أكثر رواد الصفحة هم من المغتربين الذين يطلبون تصوير أزقة المخيم وحاراتهم التي ولدوا وترعرعوا فيها، وعند رؤيتهم للصور يعلقون «يااااه! أديه متغيّر المخيم!»، أو يرسلون صورهم الشخصية كي يشعروا أنهم لا يزالون في المخيم ولو فايسبوكياً. تحرك الصفحة العواطف، فيجتمع فيها الكل كحارة ضيقة أو شارع من شوارع المخيم، وتدور بينهم أحاديث حقيقية في عالم افتراضي، هو أقرب ما يكون إلى شبكة من الانتماء العاطفي.

رسائل صبابة وحنظلة

طفولة «اليرموك» أمومة «تل الزعتر»

ماهر منصور

تحت سقف بيت متواضع، بُني على عجل وسط مخيم اليرموك، كانت أمي الفلسطينية الحاجة عزيزة العلي، توزع لكل منا قطعة واحدة من مثلثات جبنة «البقرة الضاحكة» لنمسحها فوق رغيف كامل من الخبز، بوصفها «فطوراً مرتباً» وكانت جبنة «لا فاش كيري» آنذاك، تعدّ ترفاً لا نقدر عليه نحن عائلة عبد الكريم منصور. فيما كان غداء يوم الجمعة، حين يتألف من فروجين مشويين للعائلة المكونة من اثني عشر فرداً، يعني أن علينا أن نقضي يوم السبت «من حواضر البيت»: زيتون ومكدوس وبأفضل أحوالنا بيض مقلي. وذلك كله كان نعمة، علينا أن نعرف قيمتها، تقول أمي. «فقد سبق أن احتفينا برغيف الخبز اليابس في مخيم تل الزعتر، فكيف لا تحتفون به طرياً الآن»؟ كانت تقول.

لم نكن نملك من بيتنا في مخيم اليرموك، في ذلك الوقت، سوى أحجاره، فالأرض تعود ملكيتها لصالح مؤسسة اللاجئين. وقد أخذ والدي، الهارب من جحيم مخيم تل الزعتر، نصيبه منها، وبنى بيته فوقها غرفة بعد غرفة. فأبي القادم من لبنان لم يكن يملك، آنذاك، سوى ساعديه وسواعد ثلاثة من أبنائه الكبار، اختاروا ترك المدرسة للعمل، فالدراسة للكبار كانت أيضاً ترفاً وقتها، ومن يحتاج إليه البيت كان يحرم من المدرسة.

أما نحن الصغار، فكان عامنا مقسوماً إلى فصلين اثنين: فصل للدراسة وفصل للعمل. ومثله كانت أيام العيد: يوم للعمل على أرجوحة الحبال، ويوم للهو طفولتنا. وتلك كانت فضيلة الحياة، كما عرف أهلي قيمتها، في مواجهة الموت في مخيم تل الزعتر، وعرفنا نحن قيمتها في صراعنا مع الحياة في مخيم اليرموك.

لم نكن في عائلتنا، كما كثير من العائلات الفلسطينية، نعرف شيئاً عن الخلاص الفردي، فمصير الفرد معلق بمصير الجماعة. ربما لهذا السبب كانت العائلة الفلسطينية مثل حبة الرمان، تكبر حباتها فيها، تنضج وتحلو معاً دون أن تغادر أيّ منها قشرتها. قشرة الرمان تلك كانت بيت العائلة، وبيت العائلة حبة رمان أيضاً تحت قشرة أكثر اتساعاً هي المخيم. هكذا كان بيت العائلة في المخيم، وكان المخيم جزءاً من السيرة الذاتية للفلسطيني، وواحداً من ملامحه المميزة التي لا فكاك منها حتى بالموت. فلا يدفن الفلسطيني، في أي بقعة من بقاع الأرض كان، إلا في مقبرة المخيم. وكأنه يخاف ألا يبعث يوم القيامة في مكان من اثنين: إما فلسطين أو المخيم.

ما من لحظة كنا نشبه حبات الرمان بقدر ما كنا نشبهها وقت النوم. كانت غرفة المعيشة تتحول في لحظات إلى غرفة نوم. ترتب أمي الفرش إلى جانب بعضها البعض لتصير سريراً أرضياً كبيراً. وكانت أمي وهي تعد فراش النوم، تستذكر مشهداً لم يكن يفارقها، هو مشهد النوم في الملاجئ... فعلى النحو ذاته، كان يعد فراش نوم الهاربين من عبث الموت إلى الملجأ، تبتسم الحاجة عزيزة، وهي تستعيد مشهداً أثيراً على قلبها: كنا في مخيم تل الزعتر أمام الموت عائلة واحدة، يجمعنا الملجأ، ووسط زحامه يتراجع الموت من أولوياتنا لصالح حكايات تنبض بالحياة، ففي الملجأ ولدت قصص حب، وفيه ولد أطفال للمخيم، وفيه كان الحلم يتعربش على قضبان نافذته باعتبارها كوة النور الوحيدة فيه، والأقرب إلى السماء.. وفي الملجأ كان الود يكبر بين البعض، وكان الخصام يشتد بين البعض أيضاً. ووحدها ليالي القصف القاسية التي تعلن أنه ربما لن يخرج نهار على من يشهدها، كان تدفع الناس لمصالحة من يخاصمونهم. هكذا صار الملجأ مع الأيام جزءاً من ذاكرة الفلسطينيين، ومنهم من اجتاح الملجأ بطاقة ميلاده، ومنه من أرّخ لذكرى زواجه، ومنهم من كتب له نهايته. وكانت أمي تقول إن «الملجأ وقتها لم يكن يختلف كثيراً عن المخيم، كلاهما محطتا إقامة مؤقتة، فيهما الفلسطيني يعيش في حالة انتظار على سفر، فلا هو يغادرهما، ولا هو يدع حقيبته بعيداً عنه ويستقر فيهما».

لأيام الملجأ في مخيم تل الزعتر، نذرت أمي العام الأول من عمري، وكان على «قطعة اللحم» التي كنتها في عامي الأول، أن تنتقل بين نساء المخيم جميعهن. حتى إني لكثرة من قلن لي إن أيديهن حملتني وهدهدتني في طفولتي، حسبت أن أمي نذرتني لنساء الملجأ لا لأيامه. ومن يومها وأنا أعد كل امرأة فلسطينية أمي. فيما كانت أمي المرأة الوحيدة ربما التي لا تغار ممن يقاسمنها حب ولدها، ربما لأنها تعلمت في مخيم تل الزعتر كيف تتقاسم والناس مع الحب، رغيف الخبز الناشف وجرعة الماء وخوف القصف ووجع الحصار.

بعد سنوات، سأعرف في مخيم اليرموك ما معنى أن تكون كل الأمهات في المخيم أمي، دون أن تغار منهن أمي. عرفت ذلك وأنا أرى عيني أمي الحاجة عزيزة العلي تغرق بالدموع، وزغاريدها لا تقف وهي تحيي جنازة شهيد مرت من أمامها، أسألها عن الشهيد، فتقول «لا أعرفه... ولكنك قد تكون مكانه «يمّى» وتكون أمه مكاني الآن! فكيف لا تريدني أن أكون مكانها، وهو الآن يقف مكانك؟!».